الديموقراطية ليست إلا العلم والمعرفة

كلمة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

سيدي صاحب المقام الرفيع ، أصحاب المعالى والسعادة ، سيداتي سادتي :

إذا ذكرت الديمقراطية فأنى أفهم منها أمرين أساسيين لا تستقيم حياة الشعوب والافراد بدونهما . أما أولهما فهو طموح الشعب إلى ان يعرف نفسه ويتجه إلى ما فيه من قوة ليستزيد منها ، ويستعين بها ، والى ما فيه من ضعف ليتقيه ويتخفف منه ، وأما الثاني فهو جلاء ضمير الشعب أمامه ليرى ما فيه من طموح ونسام وظمأ إلى الحق واحتياج إلى ما ينبغي أن يصل اليه من كمال .. بغير هذين الأمرين لا أستطيع أن أفهم الديموقراطية ، ولا أظن الديموقراطية نفسها تفهم تقسها إلا على هذا الوضع . فالديموقراطية هي أن يفهم الشعب طموحه ، وهى الوسيلة التي يفهم بها الشعب حاجته إلى الحق والعدل والمثل العليا . والديموقراطية فى هذا ليست إلا العلم والمعرفة ، فاذا كان هذا حقا ، وأظن انه حق ، فالصلة بين الجامعة والديموقراطية ليست إلا الصلة بين العقل والجسم أو ليست إلا الصلة بين العقل المدبر ، والمادة التي تحتاج إلى من يدبرها .

وعلى هذا الاساس فالديمقراطية تمكن الشعب من أن يتعرف حاجته من العدل ومن الحق ومن الطموح ، وما أظن ان الشعب قادر على أن يستكشف شيئا من هذا ، إذا كان جاهلا

وإذن فأنا لا أغلو إذا قلت ان الديموقراطية لا تبغض شيئا كما تبغض الجهل ، ولا تحب شيئا كما تحب العلم ، وكما تحب المعرفة

سيداتي سادتي :

إن الله لم يختص مصر بخصب ارضها فحسب ، ولكنه اختصها كذلك بخصب النفس المصرية ، فالنفس المصرية كالأرض المصرية معتدلة مستقيمة خصبة قابلة لأن تستقبل ما ينقل اليها من علم ومعرفة ، فيصبح نافعا لها ولغيرها ، وما أكثر النباتات والاشجار التي نقلت إلى مصر فنمت وترعرعت وأزهرت ، وما أكثر المعاني والخواطر وألوان المعرفة التي نقلت إلى مصر فنفعتها واستقرت فيها وأفادت منها مصر ، وأفادت بها غيرها من البلدان

فقد انتقلت إلى مصر فى الازمان القديمة حضارة اليونان فاستقرت فيها ونمت وكانت مصدر نفع للإنسانية كلها ، وانتقلت إلى مصر فى العصور الوسطى الحضارة الاسلامية فاستقرت فيها ونمت وكانت مصدر نفع للإنسانية كلها ، وانتقلت إلى مصر في العصور الحديثة الحضارة الاوربية الحديثة فتنمو وتزدهر وهى الآن مصدر نفع للإنسانية كلها . فالنفس المصرية كالأرض والجو والبيئة كلها خصب ونفع ونماء وازدهار ، فاذا كان هذا حقا فقد نقلت إلى مصر فى هذا العهد الجديد الذي نعيش فيه شجرة لم تكد تنقل اليها حتى نمت واثمرت وهى شجرة الديموقراطية .

لم تكد تصل إلى مصر وتستقر فيها حتى اخذت تهدى ثمراتها وهي جلاء ضمير الشعب للشعب واظهار الشعب على انه فى حاجة شديدة جدا إلى ان يتعلم وعلى أن يتعلم بغير انقطاع .

فرقى التعليم فى مصر واتساعه وتعمقه انما هو مقترن بوصول الديموقراطية إلى مصر ، وكلما احست مصر حياة ديموقراطية صحيحة نقية بعيدة عن النقص أحست رغبتها في أن تتعلم ، وأن تتعلم إلى غير حد .

وإني ألفت حضراتكم إلى هذين العامين الاخيرين ، فلم تكد الديموقراطية المصرية تعود إلى حياتها الطبيعية ، حتى انجلى للشعب ضمير الشعب ، وإذا هو في حاجة إلى أن يتعلم ، وإذا هو يدفع حكومته إلى التعليم والتوسع فيه لا إلى غير حساب بل إلى حد كبير جدا ... وكم اتمنى أن اقول بغير حساب ، فهذه النتيجة هي ما ينبغي أن نصل اليه حتى نحيا حياة ديموقراطية صحيحة

وهنا أذكر لحضراتكم هذه الخصومات بين الديموقراطية والحكومات الديموقراطية ، فالحكومات مضطرة إلى أن تفكر وتدبر وتعمل ، وهى لا تريد أن تتوسع بغير حساب ، ولكن الديموقراطية التي تختلط بدم الشعب ، وهذه الديموقراطية تطلب بغير حساب . وإذا كان العقل مضطرا إلى أن يقرر ويدبر ويحدد ، فان طبيعة الاشياء اقوى وأبعد مدى من العقل ... فاذا وصل اليه العقل اليوم إلى شيء ، فأن طبيعة الاشياء تدعو إلى أكثر مما وصل العقل ، واذا كانت هذه الطبيعة قد دفعتنا إلى التوسع فى التعليم فستكرهنا غدا على التوسع جداً ، وقد كان الناس يضيقون بهذا التوسع .

وإذا كانوا ينظرون اليه نظرة امتعاض ، فإنى أوكد لكم غير متردد ، أن هذا التوسع ليس الغاية ولا هو النهاية ، ولكنها خطوة بدائية ان كانت قد دفعتنا اليوم إلى تعميم التعليم الابتدائي بالمجان ، فأنها ستدفعنا حتما إلى تعميم التعليم الثانوى بالمجان ، والى تعميم التعليم العالي بالمجان ايضا ....

ذلك أن الديموقراطية بطبيعتها حريصة على أن يعرف الشعب نفسه ، وعلى أن يعرف واجباته ليؤديها على الوجه الصحيح ، وأن يعرف حقوقه ليحميها من كل اعتداء ، وليحرص عليها غير متردد . ووسيلة الشعب إلى ان يعرف حقوقه وواجباته ويستطيع الحياة المطمئنة التي لا تركد وانما تنمو وتسمو وتصل إلى الذروة ، وسيلة الشعب إلى هذا هو العلم ، ووسيلة الشعب إلى العلم شيء واحد هو الديموقراطية ، وحاجة الديموقراطية إلى العلم لا تنقضى .

ليس المهم أن ديموقراطيتنا طموحة إلى العلم ، فهذا شيء مقرر ، وانما يهمنا أن نزيل بعض الاوهام التي تختلط بالمثقفين الممتازين أو غير الممتازين عن علاقة العلم بالديموقراطية أو علاقة الجامعة بهذه الديموقراطية .

فينا مثقفون ممتازون جداً ، بل لقد بلغوا من الثقافة أبعد الحدود ، وهم ، يذهبون إلى أن التعليم الجامعى ينبغى أن يكون محدوداً أشد الحد لأنه نوع من الترف لا ينبغى أن يدفع اليه

الشعب دفعا عنيفا ، وانما يجب أن نقدم عليه محتاطين ، لأن الشعب إذا تعلم تعليما جامعيا ممتازا فقد يطمع فيما ينبغى إلا يطمع فيه ، وقد يفكر فيما لا ينبغي أن يفكر فيه ، وقد يأمل حياة لا ينبغى أن يكون له فيها أمل .

وهم من أجل ذلك يحرصون أشد الحرص على أن يتحد التعليم الجامعي ، ويدعون دائما إلى الاحتياط في نشر هذا النوع من التعليم . ولكن يخيل إلى ان هذه الدعوة أقل ما يمكن أن توصف به انها خطرة على الديموقراطية والنظام الديموقراطي ، فضلاً عن انها لا تستقيم مع طبيعة الاشياء . ذلك ان التعليم الجامعى اما ان يكون خيراً وأما أن يكون شراً ، فاذا كان خيرا فالديموقراطية تدعو إلى المساواة فيجب ان يتساوى الجميع في الخير واذا كان شرا فلا ينبغى أن يستأثر بهذا الشر فريق دون سواه ، انما الواجب ان يتساوى في الشر الجميع .

فهل التعليم خير أو هل التعليم شر ، وأريد التعليم الجامعي؟

أريد ان اجيب كما يجيب الماديون ولا أقصد الماديين فى الخلق والدين ، ولكني أعنى الماديين فى الاعتبار المعتاد ، الذى يرمى إلى الكسب والخسارة .

أريد أن اجيب كما يحب هؤلاء ولا اجيب كالذين يحبون العلم للعلم ، ولكني أحببت أن اجيب عنه على اساس الكسب والخسارة .

هل بلغت مصر من استثمار مواردها التجارية والصناعية والزراعية ، أقصى ما يمكن أن تطمح اليه ؟ كلا .

هل بلغت مصر من استثمار مواردها هذه أوسط ما يمكن ان تطمح اليه ؟ كلا

انها لم تبلغ من استثمار مواردها الصناعية والتجارية شيئا ، وهي بعد تتحسس الوسائل التي يمكن ان تستثمر بها هذه الموارد

وإذن فحياتنا المادية نفسها ، هذه الحياة التى تعنى الإثراء وتوفر المال في حاجة إلى ان نفكر فيها ونعمل لها .. فكيف يكون التفكير إذا لم يكن هناك رأس مفكر وهو التعليم العالي ، ولا شيء إلا التعليم العالي ...

قد يقال ان التعليم المتوسط ، أو الأولى أو الثانوى كاف ولكن صدقوني ان هذا كلام يقال ، وأبسط ما يدل عليه ان الذين يقولونه لا يفكرون فيه ، ذلك ان التعليم المتوسط والاولى والثانوى لا يمكن ان يوجد أو ينظم أو يؤتى ثمره القريب أو البعيد إلا إذا اشرف على ادارته وتنظيمه قوم قد بلغوا حظا كبيرا جدا من التعليم العالى . فليس بكاف أن يريد الانسان شيئا ، ولكن ينبغي ان يكون فاهما ما يريد

فالذين يريدون ان يكتفى بالتعليم الأولى أو الثانوى أو المتوسط ، إنما يريدون ببلادهم ألا يكون لها رأس أو عقل . وليس هذا هو كل ما يوجه إلى الجامعة في البلاد الديمقراطية من اعتراض

، بل يوجه إلى الجامعة والى التعليم العالى انه قد يعني بالنظريات والتفكير الخالص ولا يعنى بالحياة العملية ، وهذا ممكن ولكن فى غير البلاد الديموقراطية حيث يتجلى للشعب ضميره ، ويقدر حاجاته ومطامحه

ذلك ان الجامعة ليست صومعة يعكف فيها المتعلمون على علم خالص وانما الجامعة بيئة للتعليم الذى يمكن طلابه من أن يفكروا تفكيرا مستقيما جليا مرنا واسعا يشمل كل ما يمكن أن يتجه اليه من المصاعب ومن المشقات التي تمس حياة الانسان النظرية والعملية في وقت واحد ، فاذا رأينا جامعة أفرادها كالرهبان فلسنا في حاجة إلى هذه الجامعة ، وإذا رأينا جامعة تعنى بالعلم لأنه يرقى العقل والحياة نفسها ، ويمكن طالب العلم من أن يكون نافعا لنفسه ولأهله ولأمته كلها عمليا وعلميا فهذه هي الجامعة التي تريدها الديمقراطية ولا نعيش بغيرها .

اذن فالذين يشفقون على مصر أو على الديموقراطية من الجامعة انما يخطئون فهم الجامعة ، وبظنهم بالشعب نفسه وتقديره لحاجاته ، وأؤكد لكم انه لو وجدت مدرسة تعنى بالعلم من حيث هو علم ، لا من حيث هو وسيلة إلى حياة قوية راقية ، لأعرض الشعب عنها إعراضاً تاماً ، ولبائت هذه المدرسة بالخذلان فلنطمئن إلى ان الشعب يحس حاجاته ويقدرها وله كما قال ديكارت :

ذوق سليم لحاجاته ومطالبه والديمقراطية تقوم على العدل

وأخص ما يمكن أن يتصف به هذا العدل ، هو هذه الفكرة التى ادخلها وزير المعارف في التعليم ، وهي فكرة (تكافؤ الفرص

«تكافؤ الفرص» يعطى كل ما يمكن أن يعطيه للفرد ، وهو لا ينبغي ان يكون مقصورا على لون دون لون من أنواع التعليم . بل لا ينبغى ان يكون مقصورا على لون دون لون من الحياة كلها . وقد وصل هذا إلى التعليم الابتدائى ، وسيصل إلى التعليم الثانوي ثم إلى التعليم العالي ، وغدا أو بعد غد أو منذ اليوم ستتجاوزه إلى فروع الحياه كلها .

سيتيح للعامل الفرصة ليؤتى كل ما يستطيع ليخدم نفسه وأمنه ، ومعنى ذلك أن تكافؤ الفرص الذي أدخل سيعم ويتسع ويصبح مرادفا لما اصطلح عليه الناس في هذه الايام وهو « العدالة الاجتماعية» .

فحياتنا الديمقراطية ستقوم على تكافؤ الفرص من جهة وعلى العدالة الاجتماعية من جهة أخرى ، وأؤكد لكم ان تحقيق التوازن بينهما ، بين ما يطمح اليه الفرد من حياة هادئة مطمئنة قابلة للكمال وإلى ما يطمح إليه نظراؤه من حياة هادئة مطمئنة قابلة للكمال إلى ما يتوقه الشعب من حياة هادئة مطمئنة قابلة للكمال . لا سبيل إلى تحقيق هذا التوازن إلا بالعقل المفكر والفكر المدير وهو يتمثل في الصفوف الممتازة في الجامعات والتعليم العالي .

إن هناك قوما يرون قصر التعليم العالى على جماعة دون جماعة فان كل فرد لن يستطيع أن يتعلم تعليما عاليا .. لابد إذن من الاحتياط ومن إبعاد الذين لا تتاح لهم الظروف عن التعليم العالى .. ولكن كيف ومن هم اولا هؤلاء الذين لا تتاح لهم الظروف؟! .

أتصل ذلك بالثروة ! .. لو أن الأمور عقدت بالثروة لكان هذا هو الهدم الصحيح للديموقراطية . أيتصل ذلك بالقوة؟! لو أن الأمور عقدت بالقوة لكان هذا هو الهدم الصحيح أيضا للديموقراطية .. واذن فهناك ظروف لا تتيح للمصريين جميعا أن يتعلموا تعليما عاليا ، وهذه الظروف يحددها مبدأ تكافؤ الفرص .

هذه الظروف تتصل بقدرة الشاب واستعداد الشاب ، فلا ينبغي أن يرد عن التعليم العالى مصرى مهما تكن ظروفه ، وأما ينبغى أن ترد الحياة نفسها ، وترد الجامعة نفسها من لا يمكنه استعداده من المضى في هذا التعلم .

ليس هناك اذن سبيل إلى ان حال فى النظام الديموقراطي الصحيح بين الشباب والتعليم العالي إلا أن يكون هذا الشباب غير مستعد لهذا التعليم .

فإذا اتيحت المقدرة للشباب فينبغى أن تفتح في وجوهم ابواب التعليم ليستطيعوا النهوض ببلادهم على أن يبعد التعليم الجامعى والعالى عن اللون النظرى الخالص ، فهذا النوع تأباه حاجة البلاد .

ومن الخير أن الاحظ أن الديمقراطية المصرية قد أخذت تشعر بهذا ، فهى لا تنشئ مدارس إلا على اساس حاجات البلاد وقد اخذت تعرف للتعليم قدره ، وللجامعيين قدرهم ، فأخذت تمكنهم من أن يعملوا على انهم اعضاء كرام فى شعب كريم ، وهذا المثل الأعلى الذي اقدمت عليه اليوم ، وما أشك فى انها إن أقدمت عليه هادئة في هذه الايام ، فأنا جميعا نتمنى ان تتاح لها القوة والنمو بحيث تتمكن من تمكين الشعب لا أن يتعلم فحسب . بل أن يتعلم تعليماً جامعياً ممتازاً .

الوفد المصرى ، ٩ يونية ١٩٤٤ .